مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 14، العدد 56 (خريف 2003)، ص 79

إدوارد سعيد.. وداعاً
(شهادات)*

أجمل ما تكون

أجمل ما تكون أن تُخلخل المدى
والآخرون – بعضهم يظنك النداء،
بعضهم يظنك الصدى.
أجمل ما تكون أن تكون حجة للنور
والظلام
يكون فيك آخر الكلام أول الكلام،
والآخرون – بعضهم يرى إليك زبداً
وبعضهم يرى إليك خالقاً
أجمل ما تكون أن تكون هدفاً
مفترقاً للصمت والكلام.

الوداع

"شجرٌ ينحني ليقول وداعاً
زهرٌ يتفتّح، يزهو، يُنكّس أوراقه
ليقول وداعاً
طرقٌ كالفواصل بين التنفّس
والكلمات تقول وداعاً
جسدٌ يلبس الرمل يسقط في
تيهه ليقول وداعاً
ورقٌ يعشق الحبر والأبجدية
والشعراء يقول وداعاً
والقصيدة قالت وداعاً".

* رحل إدوارد سعيد والعدد الحالي من "مجلة الدراسات الفلسطينية" في مراحل إعداده الأخيرة، الأمر الذي جعلنا نكتفي هنا بكلمات في وداعه مأخوذة من الصحافة اليومية، على أن نعود إلى مساهماته وإنجازاته في العدد التالي.

أدونيس

من قصـــائد قديمة للشـــاعر أُلقيت في حفل التكريم الذي أقـامـه أصـــدقـاء إدوارد ســـعيد في الجـامعـة الأميركية

بيروت، 2003/11/1

ضميرنا، وسفيرنا إلى الوعي الإنساني

لا أســتطيع أن أودّع إدوارد ســعيد، من فرط ما هو حاضـــر فينا وفي العالم، ومن فرط ما هو حي. ضميرنا وسفيرنا إلى الوعي الإنساني سئم، أمس، من الصراع العبثي الطويل مع الموت. لكنه لم يســأم من مقاومة النظام العالمي الجديد، دفاعاً عن العدالة، وعن النزعة الإنسانية، وعن المشترك بين الثقافات والحضارات. كان بطلاً في مراوغة الموت طيلة اثني عشـر عاماً. بتجديد حياته الإبداعية الخصــبة، بالكتابة والموســيقى وتوثيق الإرادة الإنســانية، والبحث الحيوي عن المعنى والجوهر، ووضــع المثقف في حيّزه الصـــارم. لو سُــئل الفلســطيني عمّا يتباهى به أمام العالم، لأجاب على الفور: إدوارد ســعيد، فلم ينجب التاريخ الثقافي الفلســطيني عبقرية تضــاهي إدوارد المتعدد المتفرّد. ومن الآن، وحتى إشعار آخر بعيد، سيكون له الدور الريادي الأول في نقل اسم بلاده الأصلية... من المستوى السياسي الدارج إلى: الوعي الثقافي العالمي. لقد أنجبته فلسطين. ولكنه – بوفائه لقيم العدالة المهدورة على أرضها، وبدفاعه عن حق أبنائها في الحياة والحرية – أصــبح أحد الآباء الرمزيين لفلســطين الجديدة. إن منظوره إلى الصـــراع الدائر فيها هو منظور ثقافي وأخلاقي لا يبرر فقط حق الفلســطينيين في مقاومة الاحتلال، بل يرى إليه باعتباره واجباً وطنياً وإنسانياً أيضــاً. كان إدوارد كُلاً لا ينفصــل. توحّد فيه الإنســان والناقد والمفكر والموســيقي والســياســي، من دون أن تشــوش طبيعة كل نشــاط من هذه الأنشــطة على طبيعة النشــاط الآخر. وامتازت شخصيته ذات السطوة العالية بكاريزما حوّلته ظاهرة عالمية فريدة. فنادراً ما يجتمع المثقف والنجم في صورة واحدة، كما اجتمعت في إدوارد سعيد، الأنيق، البليغ، العميق، الشــرس، الســلس، المفتون بجماليات الحياة واللغة. وفي وداعه الصــعب، في وداعه المســتعصــي على الغياب... يلتقي العالم مع فلسطين عند لحظة نادرة، فلا نعرف الآن من هم أهل الفقيد، لأن عائلته هي العالم. خســـارتنا مشـــتركة، ودموعنا واحدة، لأن إدوارد بضميره الحي وموسوعيته الثقافية، قد وضـع فلسطين في قلب العالم، ووضـع العالم في قلب فلسطين.

محمود درويش

"الحياة"، 2003/9/26

رماد إدوارد سعيد
في أرض لبنان

في مقبرة "الأصدقاء" (الفريندز) في برمانا، وبين أشجار الصنوبر، زُرعت شجرة زيتون عتيقة كي تظلل الحفرة التي رقد فيها رماد إدوارد سعيد. نحو ستين شخصاً من أفراد العائلة والأصدقاء القريبين، التقوا في العاشرة من صباح أمس في برمانا، من أجل أن يضعوا الزهور على قبر الكاتب الفلسطيني الكبير، الذي اختار لبنان مثوى لرقدته الأخيرة.

كان الصمت ينتشر فوق أغصان الصنوبر. أغصان شجرة الزيتون التي زرعت أول من أمس كانت تورق فوق القبر. وكانت الدموع تختنق في المآقي.

[.....]

الصراع الطويل مع المرض انتهى، وبطولة مقاومة الموت بالكتابة سدل عليها الستار. إدوارد سعيد، المعلم، والناقد، والأكاديمي والمفكر، ابن فلسطين الذي جعل بلاده تولد تحت قلمه مشرقة وجديدة، أغلق عينيه إلى الأبد، وقرر أن يرتاح.

لكن دموعنا كانت تخدعنا، مثلما قد تفعل الدموع.

هذا الكاتب الفلسطيني الأميركي المصري اللبناني، الذي حوّل النقد الأدبي قراءة في المعرفة والتاريخ والمجتمع، وجعل النقد الثقافي إطاراً لفهم علاقات المعرفة بالسلطة، كان شاهداً ومثقفاً. شهد لعصره من موقع التعدد الثقافي الذي يحمل قضية الإنسان، والتوق إلى الحرية والعدالة وكان مثقفاً في وصفه خارج كل سلطة وضد كل قمع، سلاحه كلماته وبلاده التي طُردت وصارت كل المضطهدين والمقاومين في العالم.

أمام القبر حاول الموت أن يخدعنا، وأن يقول إن إدوارد سعيد مات، وإنه لا يليق بالأموات سوى المراثي.

غير أن الصمت الذي لفّ المقبرة – الحديقة، نبهنا إلى الحقيقة. كاتب مثل إدوارد سعيد لا يموت.. كلماته تتنفس في قرائها، وأفكاره تعيش في ساحة الحرية التي يصنعها الإنسان. فإدوارد سعيد لا تليق به المراثي. الحياة وحدها تليق به.

الياس خوري
"النهار"، الملحق،
2003/10/31

آخر النهضويين

يساورني شعور بأننا، نحن أصدقاءه ورفاقه في النضال، لم نقل لإدوارد بما في الكفاية: إنّا نحبك. لقد أثار هذا الرجل [قدراً] من الكراهية والعداوة في دفاعه عن الحق وعن فلسطين وقضايا الحرية والعدالة في العالم، وخاض سجالات فكرية وسياسية بالغة العنف، وكان صارماً على نفسه وأصدقائه بقدر صرامته في مواقفه وأحكامه ودأبه، ناهيك بضراوة مقاومته للموت وصراعه معه، الأمر الذي جعلنا ننسى أنه هش مثل أي كان. وكان يزداد هشاشة وشفافية كلما أخذ منه المرض مأخذاً. في المرات الأخيرة التي شاهدته فيها، هنا في بيروت، هممت بأن أقول له ببساطة: إنّا نحبك. ثم انكتمت. ربما هي المكابرة الذكورية لا أكثر.

[.....]

فيما يكثر البحث في جنس الملائكة عندنا، بين شرق وغرب، كان إدوارد سعيد قد تجاوز ابتداء من كتابه "الإمبريالية والثقافة" المكمّل لـ "الاستشراق"، ثنائية شرق/غرب ليجري احتواؤها من ضمن رؤية أشمل هي النزعة الإنسانية العلمانية. نزعة تنطلق من الافتراض أن البشر يصنعون تاريخهم، وأن من حقهم بالتالي أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم، وأن العالم الحقيقي هو موضوع المعرفة الأساسي. نزعة مشبعة أخلاقياً ترى إلى عالم لا تكون فيه الفروقات والتباينات بين البشر مادة للسيطرة وإنما مصدر غنى للجميع. وهي النزعة الإنسانية العلمانية التي أرادها إدوارد سعيد وصيته الفكرية والنضالية.

هي مناسبة لنقول فخرنا بأنه خرج بين العرب من عاش في بطن الحوت – كما كان المفكر والمناضل الكوبي هوسي مارتي يقول عن إقامته الأميركية – بعدما اقتحم الغرب اقتحاماً في حواضره الأساسية، مثله مثل فرانز فانون أو بابلو بيكاسو. فطوّع لغة ذلك الغرب وثقافته لرؤية تحمل كل غضب العالم الآخر وعذابه وجراحه وتتسع لآمال ذلك الآخر وهوياته وثقافاته.

للذين ينعون على العرب عدم مساهمتهم في الحضارة الحديثة نقول ببساطة: إدوارد سعيد أحد أجمل مساهمتنا في تلك الحضارة وألمعها وأخصبها.

فواز طرابلسي

"النهار"، الملحق،

2003/10/6

العالم كله خسره

كان إدوارد سعيد هو من وضع في مرحلة الستينات القضية الفلسطينية على الخارطة في بلد مثل الولايات المتحدة الأميركية، وهو الذي أدخلها في صلب وعي تلك المرحلة التي كانت مرحلة الانتفاضة، حتى داخل أميركا نفسها، على المؤسسة الحاكمة التي كانت تشن حرباً على بلد مثل فيتنام. فكان له دور هائل في طرح القضية الفلسطينية بضوء جديد وفي كسب معايير متنوعة ومختلفة، ووقتذاك تمكّن من كسب الرأي العام المتمرد اليساري الناقم إلى جانب القضية الفلسطينية وما يتبعها من قضايا التحرر وحقوق الإنسان في العالم أجمع.

يصعب الكلام على إدوارد من دون ذكر كتابه "الاستشراق" الذي دخلت معه كآخرين في نقاش حوله، ولا شك في أن الكتاب ترك أثراً هائلاً في مجموعة من المجالات التي نادراً ما يبصمها كتاب واحد ببصمته وطريقته. فكثير من العلوم، من الأنثروبولوجيا إلى اللسانيات إلى علم الاجتماع وحتى النقد الأدبي، كانت شيئاً قبل "الاستشراق" وصارت بعده شيئاً آخر. وهو كتاب دشّن برأيي مرحلة من النقاش والسجال والنقد على مستوى عالمي ودولي وحتى عولمي. لم يسبق لكتاب أن كان في لحظة واحدة عابراً للقارات واللغات والثقافات مثل هذا الكتاب. فكانت ظاهرة لافتة وكبيرة، وجاءت ردود الفعل المؤيدة لما جاء في الكتاب أو المناقضة أو البين بين من أنحاء العالم كافة. عادة لا تخرج الكتب الأكاديمية من الجامعات ولا تثير مثل هذا السجال غير المسبوق، والكتاب الوحيد ربما الذي أثار نقاشاً في تلك المرحلة كان كتاب باسترناك "دكتور جيفاغو" لكن تم ذلك لأسباب سياسية تتعلق بالحرب الباردة، لكن كتاب إدوارد فرض نفسه من دون التداخل مع قضايا سياسية مباشرة. وفي هذه الناحية أيضاً فتح باباً هائلاً.

صادق جلال العظم
"المستقبل"، 2003/9/26

الأول

إذا أردنا أن نلخص حياة إدوارد سعيد فقد كان المناضل الأول في أميركا على صعيد النشاط العملي السياسي في ما يتعلق بالقضية الفلسطينية والعربية، وكان الأكثر فاعلية. أمّا على المستوى الفكري والأدبي فكان مميزاً بشكل يفوق أي أكاديمي آخر من جيله.

بصرف النظر عمّا إذا كان المرء يتفق مع كل مواقف سعيد فقد كانت تعبّر دائماً عن أمر أساسي، فقد كان يتكلم بدقة ووضوح عمّا يشعر به الشعب الفلسطيني، وأيضاً

الشعوب العربية. قدّم لهم توضيحاً لا مثيل له عن الأزمة والمحنة التي نعيشها. اتخذ مواقف صدامية من السلطة الفلسطينية، إنما كان في ذلك أيضاً يعبّر عن شعور شعبي عام، كان له في هذا المجال أيضاً الأولوية في التكلم بشجاعة، وبنظري بصوابية لم يتوصل إليها أي محلل عربي في أميركا أو في البلاد العربية.

هشام شرابي
"المستقبل"، 2003/9/26

قوة الأنقياء ونضارة الشهداء

لأنه لم يقبل الغش والخداع داخل المؤسسة الغربية والدولية التي اختارت وطنه فلسطين ضحية لظلمها، بدأ انقلابه على ذاته الثقافية أولاً. فكان قاسياً على النفس، قبل أن يكون قاسياً على الآخرين، فجاء حقه في نقد الغرب السياسي والثقافي والاقتصادي الأقوى والأكثر صدقية بين جميع ما انتقد به المفكرون والقديسون الذات الحضارية للبلدان والفئات والنظريات المتغلبة ساعة بدأ يحصّن نفسه بأكمل ما عرف مثقف من عدة. الثائر على النفس الحضارية الموروثة كان من الطبيعي أن يكون المؤهل الأكثر حصانة لتقويض هياكل الظلم الذي أحيط بها شعبه.

وقلائل من يتركون العالم بعد غيابهم غيره ما كان يوم أطلوا عليه، وقد قدر لإدوارد سعيد أحد أبناء الشعوب الأكثر عرضة للاضطهاد وإنكار الوجود، وهو الشعب الفلسطيني، أن يحقق انقلاباً فكرياً وأخلاقياً في نظرة المؤسسة الثقافية الغربية، بل العالم إلى الكثير مما كانت صنفته مفاخر وفتوحاً فكرية ومناقب، بررت بها لدولها الفتوح، لشركاتها التوسع الجشع والوحشي في أرض الآخرين.

منح الصلح
"الحياة"، 2003/9/26

رحل إدوارد سعيد
وخسرنا جميعاً

ابن المنافي، جعل من منافيه، في كل العالم، أمكنة مفتوحة على تراب بلاده، ومآسي ناسه، وما يتعرضون له من قهر وظلم ليس من قبل العدو الصهيوني فقط، بل من عالم تواطأ كله، ذات زمن، وما زال، مع هذا العدو. ومع هذا اخترق إدوارد سعيد ما يُخترق بأعجوبة، اخترق بحضوره الفذ، ورحابة ثقافته، وإبداعه الفكري، والنقدي، والسياسي، تلك الجدران المعدنية العالية التي ارتفعت أصلاً في وجه شعبه، ليحتل المكانة المرموقة بين أهل الكتابة والفلسفة والسياسة، ذلك لأنه جاء من أمكنة أُخرى.

أمكنة من خارج الثقافة التقليدية، والنضال التقليدي، والخطاب الفكري والسياسي الجامد. جاء من حيث يفاجئك المبدعون الكبار بحضور متفرد، وأخّاذ، وقريب وطازج، لكن أيضاً شاهق.

[.....]

إدوارد سعيد من قلة استعادت، بإصرار وبوعي عميق، واجتراح، وتجذر، الوظيفة السياسية للثقافة والإبداع والكتابة، من دون أن يقع، حتى في أكثر المراحل سخونة وانفعالاً وعاطفية وذاتية، لا في المباشرة، ولا في التبسيط، ولا في الخطاب التعبوي الآني، أو الدوغمائية المغلقة أو الدعائية الضيقة. كان لنضاله أفق. بل كانت كل الآفاق المشرّعة على المعاصرة في خدمة نضاله: من الفكر الذي رفض أن يكون مرتبطاً بما يسمّى "ما بعد الحداثة" بمضمونه العدمي أو التدميري، أو المفرّغ من القيم والحقائق الكبرى، إلى السياسة التي جعل التزامه فيها التزاماً بالقضية الفلسطينية وبكل القضايا العالمية، والشعوب الخاضعة للكولونيالية، ومطامحها وآلياتها المتوحشة وجنونها.

بول شاوول
"المستقبل"، 2003/9/26

إدوارد

لم يكن قديساً ولم يكن كل ما جاء به من أفكار معصوماً عن المجادلة والأخذ والرد، فإطلالته على المشهد الثقافي العربي بتفاصيله وتشعباته وخلفياته قد تبدو لدى البعض ملتبسة بعض الشيء بسبب معوقات موضوعية، لكن إدوارد سعيد كان مدافعاً عظيماً عن شعبه بنفس المقدار الذي دافع فيه عن إنسانية المعرفة وعن صورة المثقف وعن أبناء المستعمرات وبؤساء العالم الثالث وكان خصماً شريفاً حتى أمام خصوم يعوزهم الشرف؛ فضلاً عن أنه لم يتردد في إعادة فحص آرائه كلما كشفت له معارفه عناصر جديدة تقتضي إعادة النظر ولعل هذا أحد أبرز ما يميز المثقف الحر. لقد كان فرحه بالمعرفة مدهشاً خصوصاً أنه من القلائل الذين سعوا لمعرفة العالم عن طريق الأدب، إنه الفيلسوف الذي حمل معاركه الفكرية من مكان إلى مكان ومن بلد إلى بلد دون كلل أو تقاعس أو شكوى رافعاً راية الجمال الإنساني بهمة من لا يطيق القبح.

مريد البرغوثي
"أخبار الأدب" (القاهرة)، 2003/10/5

إدوارد سعيد
غادرنا وبقي فينا

انتمى إلى فلسطين عبر انتمائه للإنسانية، وغدا أفضل من مثّل الشعب الفلسطيني من دون منازع، لأنه لم يصل فلسطين من منطلق التعصب القومي بل من بوابة الإيمان بالعدالة والإنسانية وحق الشعوب، كل الشعوب من دون تمييز. ولذلك لم يكن على استعداد للقبول بمساومة أوسلو، ليس تعصباً بل لأنها كانت مساومة على الحق والعدل ومناورة أصحاب المصالح على حساب مصالح الشعوب.

ندين له بالكثير، وتدين له المبادرة الوطنية الفلسطينية بأنه آمن بها وسبق الصفوف وخاطر بالدفاع عنها والدعوة لها طريقاً لاستنهاض الشعب الفلسطيني وإنارة مشعل الحرية والديمقراطية الفلسطينية، عندما كان البعض يتردد أو يجري حسابات الربح والخسارة واحتمالات النجاح والفشل، أو يقبع أسيراً في قيود الماضي.

مصطفى البرغوثي
"الحياة"، 2003/10/29

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf